حديث الصحابية المجادِلَة

دراسة في ضوء موضوعات الدعوة وأساليبها ووسائلها

إعداد:

د. زلفى بنت أحمد الخراط

الأستاذ المشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، كلية الشريعة بجامعة القصيم

zzsmm1978@gmail.com

الملخص :تناولتْ الدراسة قصة الصحابية التي جادلتْ رسول الله ﷺ فيما عَرَضَ لها من إشكال بينها وبين زوجها، وقد تقرّر على إثره حكم شرعي. وهذه القضية وما تحمله في طيَّاتها من مشكلاتٍ نفسية ﷺ واجتماعية تؤثّر في الزوجة، فتُشعرها بالمهانة، وتقلّل من شأنها، وتجعل نظرة المجتمع لها بأنها مجرد أداة للمتعة يُقبِلُ عليها الزوج متى أراد، ويتركها متى عافها، دون أدنى اعتبار لِما يسبّبه لها ذلك من ألمٍ نفسي. ولا ريب أن ذلك الإذلال سوف يظهر في تَعامُلِها مع زوجها، وفي تربيتها لأولادها. بيدَ أن أحكام الإسلام تُعلي من شأن المرأة، وتأمر باحترامها، وتمنع ما يهينها، أو يحطّ من شأنها. ويعتني الداعية بالقضايا المجتمعية، ويُلقي الضوء على تفاصيلها ودقائقها؛ إبرازاً لحِكَم التشريع الإلهي، وبياناً لشمول قضاياه، وتحقيقها لِما يحتاج إليه المسلم من قيم عليا ومثل عظمى. وتمّت دراسة قصة الصحابية المجادِلة باستخدام المنهج الاستقرائي الاستنباطي من منظور تأصيلي دعوي، من حيث الموضوعات الدعوية التي تناولها هذا الحَدَث، من عقيدة وشريعة وأخلاق، وبيان أهم ما استُخدم فيها من أساليب دعوية كالحكمة والمجادَلة، ومن وسائل دعوية كالفتوى والتعليم. ومن أهم ما أوصيتُ به بعد انتهائي من هذا البحث ضرورة أن يُدرّب طلبة العلم الشرعي على استنباط الفوائد الدعوية من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة.

الكلمات المفتاحية: دعوة، مجادلة

The "Argumentative Companion" Hadith: A Study in the Science of Da'awa

Dr. Zulfa Ahmed Kherrat

Associate Professor in the Department of Doctrine and Contemporary Doctrines

College of Sharia — Qassim University

zzsmm1978@gmail.com

Abstract

The study discussed the story of the companion who argued with the Prophet Muhammad, peace be upon him, regarding a dispute between her and her husband, which resulted in a legal ruling. This case, with its psychological and social complexities, affects the wife, making her feel humiliated and disrespected, diminishing her status, and portraying her in society as a mere tool for pleasure, accepted by her husband whenever he wants and abandoned whenever he pleases, without any regard for the psychological pain it causes her. Undoubtedly, such humiliation will manifest in her marital relationship and in the upbringing of her children. Islamic rulings elevate the status of women, commanding respect for them and prohibiting anything that humiliates or diminishes their status.

The preacher addresses societal issues, shedding light on their details and intricacies, highlighting the wisdom of divine legislation and demonstrating the inclusivity of its issues, achieving what Muslims need of lofty values and great examples. The story of the argument is studied from a preaching perspective, focusing on the preaching topics addressed by this event, including creed, jurisprudence, and ethics. Moreover, it examines the persuasive techniques employed, such as wisdom and debate, as well as the preaching methods used, such as issuing religious rulings and education.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، والمبعوث هدى ورحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

فقد أَوْلَتْ الشريعة قضايا المجتمع المسلم عناية فائقة، وخصّصت أحكاماً تفصيلية لتقويم مسارها، ومعالجة إشكالاتها. وفي مقدمة تلك القضايا العلاقات الزوجية. وما تلكم العناية إلا لدورها الكبير في استقرار الأسرة التي هي نَواة المجتمع المسلم، فما المجتمع إلا مجموع أُسَرٍ مسلمة يزيد قوة وصلابة بترابطها وقوتها، واستقرار كيانها، ويعاني هشاشة وضعفاً جرَّاء مشكلاتها وخلافاتها.

والقضايا الاجتماعية من الموضوعات التي اعتنى بها الدعاة، ومن أهمها قضايا العلاقة الزوجية؛ فهذه العلاقة ستكون المحضن التربوي المستقبلي لأفراد الأسرة من بنين وبنات، وهم في أمسّ الحاجة لوالدَين متعاونَين، يقدمان لهم التربية القويمة، والتوجيه السديد، فينتج عن ذلك استقرار أُسريّ يؤثر على نحوٍ كبير في راحة المجتمع المسلم، وتقدّمه الحضاري، وهناءة باله.

ومن الأمثلة على القضايا الاجتماعية الزوجية التي تحدث عنها القرآن الكريم وتناولتها السنة النبوية، قضية الظّهار؛ لِما يترتب عليه من نتائج سيئة تنخر في نفسية الزوجين وأبنائهم، وتزعزع استقرار الأسرة، وتهدّد أمنها، وتُقلق راحتها. وما شُرعت كفارة الظهار إلا من أجل أن تنتعش الحياة الزوجية، وترجع إلى سكينتها ومودّتها، ولتحافظ للأسرة المسلمة تماسكها وترابطها، ومن ثَمَّ تَرابُط المجتمع المسلم، وقوته وتماسكه، فيصبح قادراً على مواجهة التحديات التي تعترضه، وتعيق نموه الحضاري على الأصعدة كافة.

وقد عرضها القرآن الكريم في بداية الجزء السابع والعشرين منه، وسمّى السورة بوصف المرأة التي اشتكت لرسول الله ﷺ حالها، وجادلته في مشكلتها، كما بدأت السورة بها، وتسمّت بوصف تلك المرأة وهي سورة "المجادلة"؛ وما ذاك إلا للتنويه بأن قضية المجادِلة على رأسِ قضايا متعددة في هذه السورة، بل في الجزء كله، وهذا ينبهنا لضرورة العناية بمثل تلك القضايا، فلا يجوز إغفالها أو تجاهُلُها، بل يُجدّد الترحيب بمعالجة أساس المشكلة، والسعي في حَلّها.

أهداف البحث:

هَدَف البحثُ إلى تحقيق ما يلي:

١- أهمية عناية الداعية بدراسة القضايا المجتمعية.
٢- التعرّف على أهم الموضوعات الدعوية التي تناولتها قصة المجادِلة.
٣- أهمية التأصيل الشرعي للأساليب الدعوية ووسائلها.
٤- التعرف على الأسلوب القرآني في معالجة جانب من الجوانب الاجتماعية للأمة.

تساؤلات الدراسة:

١- ما أهمية عناية الداعية بأساليب ووسائل الدعوة إلى الله؟
٢- ما أهمية التأصيل الشرعي القرآني للأساليب والوسائل الدعوية؟
٣- ما قصة المجادِلة؟ وكيف نستثمر ما ورد فيها من وسائل وأساليب في المجال الدعوي؟

الدراسات السابقة:

اطلعتُ على عدد من الدراسات العلمية التي عُنيت بدراسة قصة المجادِلة، ووجدتُ منها:

١- التوجيهات التربوية وأساليبها المستنبطة من سورة المجادلة، دراسة قرآنية، للباحث هيثم أبو العطا، وهي رسالة ماجستير من رسائل الجامعة الإسلامية في غزة، كلية أصول الدين في فلسطين. وفي هذه الدراسة تحدث الباحث عن أهم التوجيهات التربوية المستنبطة من كامل السورة، كما درس أهم الأساليب اللغوية والبلاغية التي احتوتها تلك التوجيهات في السورة. وليس في هذا البحث دراسة لعلوم الدعوة في قصة الصحابية المجادِلة، ومن هنا فإن التخصص العلمي كان في جانب التربية الإسلامية، وتعامَلَ مع الآيات لتي تلت قصة المجادِلة على نحو مفصَّل.

٢-**من أحكام وآداب سورة المجادلة، دراسة موضوعية**، للدكتور محمد عبد الفتاح سلام، وفي هذه الدراسة تحدث الباحث عن أهم الأحكام التشريعية الواردة في هذه السورة، وهما حكم الظهار وكفَّارته، وحكم

موالاة غير المسلمين، كما تناول الآداب التي اشتملت عليها السورة وهي المناجاة في الإسلام وإلقاء السلام، وأدب المجلس. وبذا يتضح بجلاء اختلاف هذه الدراسة عن دراستي، فالباحث لم يتحدث عن قصة المجادِلة إلا في معرض البيان الفقهي للظّهار وكفارته، أما دراستي فهي عن الجوانب الدعوية لقصة المجادِلة.

٣-**دور المرأة في استقرار الأسرة في ضوء فاتحة سورة المجادلة**، دراسة موضوعية، للدكتور بدر إبراهيم الذيابي، وفيها تحدث الباحث عن مفهوم الأسرة، وأهم مقوماتها، ثم درس دور المرأة في استقرار الأسرة في ضوء بداية سورة المجادلة، وكانت دراسة الدكتور مجملة مختصرة، لم يتطرق فيها إلى الجوانب الدعوية التي تناولتُها في بحثي على نحو تفصيلي.

٤-**الحوار في سورة المجادلة، للباحث لسليمان عقاب الزعبي**، وفيه تناول الباحث منهج القرآن الكريم في الدعوة عن طريق الحوار، وبيّنَ أن أسلوب الحوار هو من أنجح الأساليب لحل المشكلات والنزاعات بين الأفراد والجماعات، ولبيان ذلك تحدث الباحث عن مفهوم الحوار والجدال والمناظرة والفرق بين هذه المصطلحات، كما وضّح أهداف الحوار وشروطه وآدابه على نحوٍ عام، وخصص سورة المجادلة في تناوله للحوار وشروطه وآدابه، واستنبط ما في السورة من فوائد في هذا المجال، وبذا يتبيّن اختلافه عن بحثي الذي كان الغرض الأساس منه دراسة أركان الدعوة المستفادة من قصة المجادِلة من موضوعات وأساليب ووسائل.

٥-**قطوف تربوية حول قصة المجادلة، للدكتور حمدي شعيب**، وفي هذه الدراسة تحدث الباحث عن بعض السمات أو الركائز التي تجعل من خولة رضي الله عنها شاهدة صادقة وموثقة على عصرها؛ ولتكون خير دليل، وبرهاناً عملياً على مكانة المرأة في هذا المجتمع الرباني. وبذا يتضح اختلاف دراسته التربوية عن دراستي التي ركّزت فيها على دراسة الجانب الدعوي لقصة المجادِلة.

ولم أقف على دراسة علمية سلّطت الأضواء على أهم المناهج والأساليب والوسائل الدعوية الواردة في قصة المجادِلة، وتَتَبُّع الروايات الصحيحة المختلفة لقصة الصحابية المجادِلة، وتطبيق مخرجات علم الدعوة عليها.

منهج البحث:

استخدمتُ في هذه الدراسة كلاً من:

١-المنهج الاستقرائي وهو "ما يقوم على التتبُّـع لأمور جزئية؛ لاستنتاج أحكام عامة منها"(١)، وهو "عملية ملاحظة الظواهر، وتجميع البيانات عنها للتوصُّل إلى مبادئ عامة، وعلاقات كلية"(٢). فاستقرأتُ أولاً النماذج المنتقاة من صحيح الإمام مسلم؛ لتكون لي بمنزلة المادة العلمية التي أنطلق منها، ثم عرَّجتُ على النماذج المنتقاة من كتب الحديث الأخرى.

٢-المنهج الاستنباطي وهو "ما يقوم على التأمل في أمور جزئية ثابتة؛ لاستنتاج أحكام منها"(٣)، وهو "منهجٌ أسلوبه الشرح والنظر والتفكر والتأمل والتحليل، وينتقل من الكل إلى الجزء، أو من العام إلى الخاص"(٤)، ومضيتُ أتأمل في هذا العالَم الثَرّ، وأستثمر من هذا الصحيح المبارك من أحاديث الرسول ﷺ الدروس والوقفات المناسبة، وأستنبط كلَّ ما يتصل بجانب هذه الوسيلة الدعوية من مناهج وأساليب وغيرها، وأتبعتُ ذلك باقتباساتٍ من أقوال السلف تتصل بعناصر المادة، ثم قمتُ بتحليل هذه الأقوال، ودعمتُ ذلك كله بشروح العلماء قديماً وحديثاً لنصوص الأحاديث في عرض ما يتعلّق بأمور الدعوة.

إجراءات البحث:

خرّجتُ الأحاديث النبوية من مظانّها، فإن كان الحديث في الصحيحين اكتفيتُ بالإشارة إلى صفحته ورقْمه، وإن كان في غير الصحيحين أشرتُ إلى أقوال العلماء في الحكم عليه، كما وثّقتُ النقول التي نقلتُها عن العلماء من مظانّها الأصلية، وحصرتُ كلّ نقل بين علامتي تنصيص، وقد أُلخّص القول بأسلوبي من غير نقلٍ حرفي، فيكون الاقتباس بالمعنى، فأُشير بالحاشية إلى الكتاب بكلمة "انظر". وحرصتُ على تقسيم البحث إلى مباحثَ

(١) البحث العلمي، حقيقته ومصادره ومادته ومناهجه وكتابته وطباعته ومناقشته، عبد العزيز الربيعة، ١/١٧٨، ط٢، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٨هـ.

(٢) مناهج البحث العلمي، د. محمد سرحان المحمودي، ص٧٤، دار الكتب، اليمن، صنعاء، ط٣، ١٤٤١هـ/٢٠١٩م.

(٣) البحث العلمي، حقيقته ومصادره ومادته ومناهجه وكتابته وطباعته ومناقشته، ١/١٧٨.

(٤) مناهج البحث العلمي، ص٧٤.

ومطالبَ دونَ الفصول؛ لأن مصطلح "الفصل" عادةً تكون صفحاته أطول عدداً. وذيَّلتُ البحث بتفصيل معلومات الطباعة لقائمة المراجع التي عدتُ إليها مرتبةً ترتيباً هجائياً. وآثرتُ أن أُفصّل في توثيق معلومات الطباعة للمرجع العلمي عند إفادتي منه أولَ وروده، وإن ورد مرة ثانية اكتفيتُ بذكر عنوانه. وعُنيتُ بضبط مُشكل النص، وأوردتُ الآيات الكريمة وَفْقَ الرسم العثماني من مصحف المدينة النبوية. ولم أترجم للأعلام المشهورين؛ لكيلا أثقل الحواشي، ورتَّبتُ الحواشي حسب وفاة أصحابها، وضبطت مشكل النص عند الحاجة.

حدود البحث:

قصة المرأة الصحابية المجادِلة في القرآن والسنة هي الميدان التطبيقي الذي اخترته في هذه الدراسة الدعوية، وقد درست ما استنبطته منها من موضوعات دعوية، وأساليب دعوية، ووسائل دعوية، ولم أتطرق لموضوعات السورة الأخرى.

خطة البحث:

المقدمة.

المبحث الأول: موضوعات الدعوة في حديث المجادِلَة:

المطلب الأول: موضوع العقيدة في حديث المجادِلَة.

المطلب الثاني: موضوع الشريعة في حديث المجادِلَة.

المطلب الثالث: موضوع الأخلاق في حديث المجادِلَة.

المبحث الثاني: أساليب الدعوة في حديث المجادِلَة:

المطلب الأول: الحكمة.

المطلب الثاني: الجدال بالتي هي أحسن.

المبحث الثالث: وسائل الدعوة في حديث المجادِلَة:

المطلب الأول: الفتوى.

المطلب الثاني: التعليم.

الخاتمة، والنتائج، والتوصيات.

تمهيد:

وسبب نزول هذه السورة ورد في الحديث الشريف الذي رواه عروة بن الزبير رضي الله عنه عن عائشة رضي الله عنها قالت: "تبارك الذي وَسِع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: "يا رسول الله، أكل شبابي، وَنَثَرْتُ له بطني، حتى إذا كَبِرَتْ سنّي، وانقطع ولدي، ظاهَرَ مني. اللهم إني أشكو إليك"، فما برحتْ حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[٥]"[٦].

والآيات التي تلتها بيّن الله فيها حكم الظهار وكفارته؛ إصلاحاً للخطأ الذي وقع فيه الزوج الذي ظاهر عن زوجته. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٧].

---

(٥) سورة المجادلة: الآية ١

(٦) سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد بن ماجه، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، محمد كامل قره بللي، عبد اللّطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩ م، برقم ٢٠٦٣، (٣/ ٢١٤)، باب الظهار، قال المحقق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٧) سورة المجادلة: الآيات ٣-٥

قال ابن حجر رحمه الله في الفتح: "واستدل بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ على أن الظهار حرام[٨]. وبيّن ابن قدامة رحمه الله أن العلماء قد أجمعوا على أن كفارة المظاهر القادر على الإعتاق، عتق رقبة، فإذا لم يجد رقبة، فإن فرضه صيام شهرين متتابعين، فإذا لم يستطع الصيام، فإن فرضه إطعام ستين مسكينا، على ما أمر الله تعالى"[٩].

وقد وردت قصة المجادِلة في عدد من الأحاديث الشريفة منها، عن عروة عن عائشة رضي الله عنهما قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، فأنزل الله تعالى على النبي ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[١٠]. وعن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: قالت عائشة رضي الله عنها: "تبارك الذي وَسِع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: "يا رسول الله، أكل شبابي، وَنَثَرْتُ له بطني، حتى إذا كَبِرَتْ سنّي، وانقطع ولدي، ظاهَرَ مني. اللهم إني أشكو إليك"، فما برحتْ حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾[١١]"[١٢].

وحديث آخر يحكي لنا قصة المجادِلة وهو: عن خُوَيلةَ بنت مالك بن ثعلبة قالت: ظَاهَرَ مني زوجي أوسُ بن الصامت، فجئت رسول الله ﷺ أشكو إليه، ورسول الله ﷺ يجادلني فيه، ويقول: "اتقي الله؛ فإنه ابنُ عَمِّكِ". فما بَرِحْتُ حتى نزل القرآن: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾، إلى الفَرْض، فقال: "يعتق رقبة". قالت: لا يجد! قال: "يصوم شهرين متتابعين". قالت: يا رسول الله! إنه شيخ كبير، ما به من صيام! قال:

(٨) فتح الباري لابن حجر ٩/ ٤٣٣ ط السلفية

(9) انظر: المغني، موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، د. عبد الفتاح محمد الحلو، ١١/ ٨١- ٩٢، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

(١٠) رواه البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: جماعة من العلماء، الطبعة السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، ١٣١١ هـ، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (وكان الله سميعا بصيرا)، (٩/ ١١٧).

(١١) سورة المجادلة: الآية ١

(١٢) سنن ابن ماجه، برقم ٢٠٦٣، (٣/ ٢١٤)، باب الظهار، قال المحقق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

"فليطعم ستين مسكينًا". قالت: ما عنده من شيء يتصدق به! قالت: فأُتِيَ ساعَتَئِذٍ بِعَرَقٍ من تمر، قلت: يا رسول الله! وأنا أُعِينُهُ بِعَرَقٍ آخر. قال: "قد أحسنتِ، اذهبي فأطعمي بهما عنه ستين مسكيناً، وارجعي إلى ابن عمك"(١٣).

المبحث الأول: موضوع الدعوة في حديث المجادِلَة

المطلب الأول: موضوع العقيدة في حديث المجادِلَة

يُعَدُّ موضوع العقيدة من أوائل الموضوعات التي ركّز عليها الشارع واعتنى بها؛ لأنَّ تصحيح عقيدة المسلم، وتأصيلها في قلبه، وتصفيتها من أي شائبة تشوبها، من الأولويات التي ينبغي للداعية أن يضعها نصب عينيه في بدايات دعوته؛ فبصلاحها يصلح كل العمل، وبفسادها يفسد جُلُّه، وباستقامة عقيدة المسلم تتحقق عزته في الدارين ويرنو إلى الفلاح، الذي هو أعظم الغايات وأسمى الأمنيات، "فالدين القائم بالقلب من الإيمان هو الأصل، والأعمال الظاهرة هي الفروع، وهي كمال الإيمان. فالدين أول ما يبنى من أصوله، ويكمل بفروعه كما أنزل الله بمكة أصوله من التوحيد والأمثال، ثم أنزل بالمدينة فروعَه الظاهرة من صلاة الجمعة والجماعة والأذان والإقامة والجهاد والصيام وتحريم الخمر والزنى والميسر، وغير ذلك من واجباته، ومحرماته، فأصوله تمدّ فروعه، وتثبّتها، وفروعه تُكمل أصوله وتحفظها"(١٤).

وقد تناول القرآن الكريم موضوع العقيدة في مواضع كثيرة متنوعة؛ تنويهاً من الله تعالى بضرورة عناية المسلم به، وتأكيداً للعلماء والدعاة ليهتموا بتعليمه، والدعوة إليه. وسورة المجادلة من السور القرآنية الكريمة التي تناولتْ جانباً من جوانب هذا الموضوع وهو تسمية الله تعالى بالسميع. وإثبات صفة السمع له تعالى، وذلك في أول آية منها، قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(١٥)،

---

(١٣) سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩ م، برقم ٢٢١٤، ٣/ ٥٣٧، كتاب الطلاق، باب في الظهار، صحيح سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢ م. برقم ١٩١٨، (٦/ ٤١٦).

(١٤) مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ١٠/ ٣٥٥-٣٥٦، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، السعودية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

(١٥) سورة المجادلة: الآية ١

عن عروة عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، فأنزل الله تعالى على النبي ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[١٦]. وعن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: قالت عائشة رضي الله عنها: "تبارك الذي وَسِع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: "يا رسول الله، أكل شبابي، وَنَثَرْتُ له بطني، حتى إذا كَبِرَتْ سنّي، وانقطع ولدي، ظاهَرَ مني. اللهم إني أشكو إليك"، فما برحتْ حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾[١٧]"[١٨].

ووَصْفُ الله سبحانه وتعالى بصفة السمع وإثباتها له سبحانه من أسس عقيدتنا وأصولها. وهي صفة قائمة بذاته، فسمْعه سبحانه عبارة عن إدراكه المسموعاتِ على ما هي عليه بأكمل وجه، دون جارحة، ولا تكييف، ولا تحديد، تعالى الله عن ذلك[١٩]. قال ابن القيم رحمه الله: "السميع الذي قد استوى في سمعه سرُّ القول وجهرُه، وسع سمعُه الأصوات، فلا تختلف عليه أصوات الخلق ولا تشتبه عليه، ولا يشغله منها سمع عن سمع، ولا تغلّطه المسائل، ولا تُبرمه كثرةُ سؤالِ السائلين"[٢٠]، "وهو الذي لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفي، فيسمع السر والنجوى،

(١٦) رواه البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: جماعة من العلماء، الطبعة السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، ١٣١١ هـ، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (وكان الله سميعا بصيرا)، (٩/ ١١٧).

(١٧) سورة المجادلة: الآية ١

(١٨) سنن ابن ماجه، برقم ٢٠٦٣، (٣/ ٢١٤)، باب الظهار، قال المحقق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(١٩) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن عطية الأندلسي، ٥/ ٢٧٢، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ١٣/ ٣٧٣، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وتصحيح تجاربه: محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، مصر، ط١، ١٣٨٠/١٣٩٠ هـ.

(٢٠) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية، ١/ ٢٧٠، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، دار عطاءات العلم، الرياض، ط٤، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩ م.

بل ما هو أدق من ذلك وأخفى، ويُدرك دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، يسمع حمد الحامدين فيجازيهم، ودعاء الداعين فيستجيب لهم"(٢١).

"والسميع هو الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات، فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعها سرَّها وعلنها وكأنها لديه صوت واحد، فلا تختلط عليه الأصوات، ولا تخفى عليه جميع اللغات، والقريب منها والبعيد، والسرّ والعلانية عنده سواء"، قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾(٢٢)(٢٣). "وهو مع علوه سبحانه وفوقيّته وارتفاعه على عرشه، قريب من عباده، يسمع كلامهم، ودعاءهم، ويرى مكانهم"(٢٤).

ولاسم الله السميع، وصفة السمع لله تعالى فوائد دعوية جلية، فالداعية عندما يدلّ المدعوين على ربهم، ويرشدهم إلى الالتجاء إليه في السراء والضراء، يعمد إلى بيان اسم الله السميع، وإثبات صفة السمع له سبحانه، وذلك بأن يحكي لهم خفايا هذا الاسم، وأسرار هذا الوصف، ويستشهد على ذاك بالآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة من مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٢٥)، وقوله سبحانه في قصة المجادلة: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾(٢٦) "أي: تخاطبكما، ومراجعتكما الكلام"(٢٧). "فهو سبحانه يسمع الخفي والجلي

(٢١) التحبير لإيضاح معاني التيسير، محمد بن إسماعيل الصنعاني، ٤/ ١١٦، تحقيق: وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه: محمد صبحي، مكتبة الرُّشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م.

(٢٢) سورة الرعد، الآية ١٠.

(٢٣) شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسُّنَّة، د. سعيد القحطاني، ص٨٦، مطبعة سفير، الرياض.

(٢٤) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، عبد العزيز بن باز، ص٥٣، دار الإمام البخاري للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م.

(٢٥) سورة الأنبياء، الآية ٤.

(٢٦) سنن ابن ماجه، برقم ٢٠٦٣، (٣/ ٢١٤)، باب الظهار، قال المحقق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٢٧) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، علي بن أحمد الواحدي، ٤/ ٢٥٩، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

في جميع ما احتوت عليه أقطار السموات والأرض، يسمع سائر الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنّن الحاجات"(٢٨). ومن ذلك حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: "كُنَّا مع رسول الله ﷺ، فكنا إذا أشرفنا على وادٍ هلّلنا وكبّرنا، ارتفعت أصواتنا فقال النبي ﷺ: "يا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِباً إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ"(٢٩).

و"اربعوا" أي: ارفقوا بأنفسكم، واخفضوا أصواتكم، ولا تبالغوا في الجهر، فإنّ رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبُعد مَن يخاطبه ليسمعه، وأنتم تدعون الله تعالى، وهو سميع قريب، معكم بالعلم والإحاطة(٣٠).

وهو بهذا البيان يقوّي في المدعوّين علاقتهم الروحية بالله تعالى، ويعمّق فيهم معاني اللجوء إليه سبحانه، فمن لجأ إلى مولاه وانقطع رجاؤه عن الخلق، ولم يَبْقَ له في مُهِمّهِ أحدٌ سوى الخالق كفاه الله ذلك المُهِمّ(٣١)، فيزدادون بذلك تعلّقاً بربهم جلّ وعز وحده دون سواه، ويزهدون بما عند الناس من مصالح ومآرب؛ إذ لا يفيد سمع أي مخلوق مع سمع الله لكل عبد، وبذا يتحقق كمال الإخلاص له عز وجلّ.

إن المجادِلة في هذه السورة لمّا لم تجد الفرج والمخرج فيما قال لها رسول الله عليه الصلاة والسلام: "ما أراك إلا وقد حَرُمْتِ عليه"، وأيقنت أنه لن يكشف ضرّها إلا الله، تضرّعت إليه سبحانه، ورفعتْ قصّتها له، بأن شكت له فاقتها ووحدتها وصبيتها الصغار، ونشرت غصّتها بين يديه، فنظر إليها سبحانه، وسمع منها، وأنزل في محكم

(٢٨) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، ص٥١٨، تحقيق عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

(٢٩) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير، برقم ٢٩٩٢، (٤/ ٥٧).

(٣٠) انظر: شرح النووي على مسلم ١٧/ ٢٦، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، ٢٣/ ١٢، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه: شركة من العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، بيروت.

(٣١) انظر: مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، ٢٩/ ٤٧٨، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ، اللباب في علوم الكتاب، عمر بن علي بن عادل، ١٨/ ٥١٦، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨م.

كتابه: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ» وجاءت الرخصة لهما بالاجتماع بعد التكفير(٣٢). وأكّد سبحانه سماعه لها ولمن في محالها فقال في نهاية الآية: (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بصيرٌ) "أي: سميع لمن يناجيه، ويتضرع إليه، بصير لمن يشكو إليه"(٣٣). قال ابن عاشور في تفسيره: "والسماع في قوله: "سمع" معناه الاستجابة للمطلوب وقبوله، بقرينة دخول قد التوقعية عليه، فإن المتوقع هو استجابة شكواها. وقد استحضرتْ المرأة بعنوان الصلة تنويهاً بمجادلتها وشكواها؛ لأنها دلَّت على توكلها الصادق على رحمة ربها بها وبأبنائها وبزوجها"(٣٤).

ومن المعاني التربوية لاسم الله (السميع) التي ينبغي للداعية تربية نفسه والمدعوين عليها، تأكيد التخلّق بهذا الاسم، وتشرّب معانيه، فالمسلم لا يصغي سمعه إلا إلى ما يفيده من أمور دينية أو دنيوية، كما يحفظ لسانه من كلّما قد يَجُرّ عليه ويلاتٍ في حياته وأخراه، فالله سميع لكل أقواله وهي مكتوبة عليه، وسيحاسب عليها بين يديه تعالى.

المطلب الثاني: موضوع الشريعة في حديث المجادِلَة

من الموضوعات التي اعتنى الإسلام ببيانها للمسلمين، ودعوتهم إليها، وشرحُ تفاصيل أحكامها، الشعائر التعبدية، والقواعد التشريعية، والمسائل الفقهية التي بها يرتبط المسلم بربه سبحانه ويتواصل معه، وبالالتزام بها يُحقق كمال العبودية له سبحانه، وبفهمها وإدراك حِكَمِها تسمو تلك العلاقة الروحية، وتزيد ألقاً وشرفاً؛ لذا كان موضوع الشريعة في مقدمة ما اعتنت به آيات القرآن الكريم، فدعتْ إلى فهم شعائر هذا الدين القويم، وأوصتْ باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وحثّت على التطبيق التام لأحكامه وتشريعاته.

وسورة المجادلة من السور القرآنية التي وردت فيها أحكام تشريعية عدة، بيّنتها آيات السورة ببيان تفصيلي جليّ، وما يعنينا في هذا البحث هو الحكم التشريعي الذي ورد في بداية السورة.

(٣٢) انظر: تأويلات أهل السنة، محمد بن محمد الماتريدي، ٩/ ٥٤٩، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، والوسيط في تفسير القرآن المجيد، ٤/ ٢٥٩.

(٣٣) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، ٤/ ٢٥٩.

(٣٤) التحرير والتنوير من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن عاشور، ٢٨/ ٨، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.

فعن خُوَيلةَ بنت مالك بن ثعلبة قالت: ظَاهَرَ مني زوجي أوسُ بن الصامت، فجئت رسول الله ﷺ أشكو إليه، ورسول الله ﷺ يجادلني فيه، ويقول: "اتقي الله؛ فإنه ابنُ عَمِّكِ". فما بَرِحْتُ حتى نزل القرآن: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾، إلى الفَرْض، فقال: "يعتق رقبة". قالت: لا يجد! قال: "يصوم شهرين متتابعين". قالت: يا رسول الله! إنه شيخ كبير، ما به من صيام! قال: "فليطعم ستين مسكينًا". قالت: ما عنده من شيء يتصدق به! قالت: فأُتِيَ ساعَتَئِذٍ بِعَرَقٍ من تمر، قلت: يا رسول الله! وأنا أُعِينُهُ بِعَرَقٍ آخر. قال: "قد أحسنتِ، اذهبي فأطعمي بهما عنه ستين مسكيناً، وارجعي إلى ابن عمك"(٣٥).

فرسول الله ﷺ وهو ولي الأمر في ذلك الوقت، استقبل خولة، وتفرّغ لسماع شكواها، ولم يهملها أو يتغافل عنها؛ وذلك لإدراكه العميق لأهمية القضايا الأسرية، والأحكام التشريعية المتعلقة بها. ولـمّا استمع عليه الصلاة والسلام لشكواها لم يزِد على قول: "حَرُمْتِ عليه"، فهو الحُكْم الذي عرفه أهل ذلك الزمان ودرجوا عليه. قال ابن عباس: "وكان هذا في الجاهلية تحريما للمرأة مؤبداً"، فكان الظهار طلاقا في الجاهلية يقتضي تأبيد التحريم، وعمل به المسلمون في المدينة بعلم من النبي ﷺ وإقراره الناس عليه فاستقر مشروعاً(٣٦).

وفي الظهار إهانة للزوجة وجُرح لها ومِساسٌ بكرامتها، فهي قد قامت بما يجب أن تقوم به المرأة الصالحة تجاه زوجها من واجبات، وصبرت على وضعه الاقتصادي المتدنّي، كما أنها لم تألُ جهداً في مراعاته وإسعاده، فهل من العدل أن يكون ذا التعامل المناسب معها؟! لذا نلحظ بوضوح خطاب خولة المكلوم الذي يحمل في طيّاته الحزن والألم. وتحكي لنا عائشة رضي الله عنها زوج رسول الله ﷺ، وكانت شاهد عيان على ما حدث في المجلس النبويّ الذي ضمّ رسول الله عليه الصلاة والسلام وخولة، قالت: "تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأَسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. فما برحت حتى نزل جبريل

(٣٥) سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩ م، برقم ٢٢١٤، ٣/ ٥٣٧، كتاب الطلاق، باب في الظهار، صحيح سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢ م. برقم ١٩١٨، (٦/ ٤١٦).

(٣٦) انظر: التحرير والتنوير ٢٨/ ٧-١١

بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾"(٣٧). "وتمَّ بذلك الحكم في قضية مظاهرة أوس بن الصامت من زوجه خولة، وإبطال ما كان في الجاهلية من تحريم المرأة إذا ظاهر منها زوجها، وبيان أن عملهم هذا مخالف لما أراده الله، وأنه من أوهامهم وزورهم التي كبتهم الله بإبطالها"(٣٨). "ولمزيد تأكيد تحريمه تأكيد الخبر بـ "إن واللام"، للاهتمام بإيقاظ الناس لشناعته؛ إذ كانوا قد اعتادوه فنزلوا منزلة مَن يتردد في كونه منكرا أو زوراً"(٣٩).

وبتحريم الإسلام للظهار، وتشريع كفارة شديدة له، ظهر جلياً إكرام الشرع للمرأة، وصَون كرامتها، وحرصه على تحريم ما يؤدي إلى إهانتها أو إذلالها، كما تبيّن لنا سداد رأي خولة، إذ لم ترضَ أن ترضخ لذلك الواقع الجاهلي المرير، بل أرادت تغييره، بسؤال الله تعالى الحكيم أن يُنزل تشريعاً هو أكثر إنصافاً للمرأة، تعلو فيه قيمتها، وتسمو مكانتها، وتنال فيه كامل حقوقها. وقد راعى الشرع الإنسانَ ذكراً كان أو أنثى، واحترم آراءه وقناعاته في حدود الدين والعقل والمنطق، وأعطاه الحرية في استعماله عقله، واستفتاء صاحب الشريعة(٤٠).

المطلب الثالث: موضوع الأخلاق في حديث المجادِلَة

من خصائص هذا الدين الذي شرعه الله تعالى لعباده، خصيصة الشمول، فتعاليم هذا الدين الرباني لم تقتصر على عقائد تُصلح فساد قلبه وتنقّي سريرته، وتشريعات تقوي علاقته بخالقه فحسب، بل أضافت إلى ذلك بُعداً مهماً، فأقرّت جمالياتٍ تهذّب سلوك المرء، وتقوّم ما اعوجّ منه، فيغدو الدين الإسلامي بذلك منهجاً كاملاً

(٣٧) سنن ابن ماجه، برقم ٢٠٦٣، (٣/ ٢١٤)، باب الظهار، قال المحقق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.
(٣٨) التحرير والتنوير ٢٨/ ٦.
(٣٩) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٣.
(٤٠) انظر: التفسير الموضوعي لسور القران، إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن بإشراف د. مصطفى مسلم، ٣٥/٨، جامعة الشارقة، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

شاملاً لكلّ من يروم حياة قويمة صالحة. ويتضمن هذا البُعد محاسن الخصال، ومكارم الخلال، ولأهميتها عدّها الشارع الهدف الرئيس لبعثة خاتم الأنبياء والمرسلين: "إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق"(٤١).

وسورة المجادلة من سور القرآن الكريم التي كان لها نصيب وافر من التوجيه الأخلاقي، يستقي منها الداعية مُثُلاً دعويةً تعينه في مهمته النبوية السامية. ومن ذلك: الورع والاعتزاز بالرأي والثبات على المبدأ والصبر والحلم والوفاء والرحمة والرأفة.

إن خولة رضي الله عنها ضربت لنا مثلاً رائعاً، ودرساً عميقاً الورع والثبات على المبدأ، إذ فقهت أن ثمة حدوداً لطاعة زوجها، وهي طاعة في غير معصية الله تعالى، فلم ترضَ أن يمسّها زوجها حتى تستفتي رسول الله ﷺ؛ خشيةً منها من الوقوع فيما يُغضب الله تعالى. كما يتعلّم منها الدعاة الاعتزاز بالرأي، والثبات على المبدأ، فقد استمرت خولة بمجادلة رسول الله ﷺ ومحاورته؛ محاولةً منها إقناعه بأهميته قضيتها، وضرورة مشكلتها.

ويتجلّى صبر خولة رضي الله عنها على زوجها وحلْمها على تصرفاته معها في هذه القصة، فمع سوء خلق الزوج، وفقره، ومظاهرته منها، لم توافق على حكم رسول الله ﷺ المبدئي وهو الطلاق، ورَجَت من الله أن يُيسّر لها مخرجاً من ضائقتها؛ حرصاً منها على تماسك أسرتها، ورفضها لفكرة هدم بيتها، وتضييع أولادها.

ورَفْضُ خولة مفارقةَ زوجها، وتفضيلُ العيش في كنفه، مع تحمّل شيء من لمَمِه(٤٢)؛ وفاءً منها للعشرة الطويلة بينهما، ورأفة بعيالها، ورعاية لمصالحهم التي لا يستطيعون نيلها إلا بوجود الأب معهم، فما كان من رسول الله ﷺ -بعد أن بيّن لها الحكم الشرعي- إلا أن أوصاها بزوجها خيراً لكِبَر سنه، وضعف شيبته.

---

(٤١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠١ م، برقم٨٩٥٢، (١٤/٥١٣)، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، برقم ٤٥، (١/ ١١٢).

(42) عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان أوس امرأً به لَمَمٌ، واللَّمَمُ: الجُنونُ. (القاموس المحيط، مجد الدين الفيروزآبادي، ص١١٥٩، مادة لمم، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٨، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م)، فإذا اشتد لممه ظاهر من امرأته، فأنزل الله فيه كفارة الظهار" قال الذهبي: على شرط مسلم. (المستدرك على الصحيحين، برقم ٣٧٩٢، ٢/ ٥٢٣).

وتقدّم خولة لنا درساً عملياً لخُلُقَي الرحمة والرأفة، إذ لم تفرح بالعقوبة المفروضة على زوجها، مع عمق الأذى النفسي الذي سبّبه لها، بل حرصت على التخفيف عنه، وإسداء المعونة له.

ولمّا علم تعالى صدق إيمان خولة، وثقتها بعدل ربها، وحرصها على أسرتها، مع عزّتها وإبائها، وعدم قبولها بالضّيم والذل، أنزل الحكم الشرعي الملائم لها ولمثيلات حالها، وذكر سبحانه في بداية الآي أنه سمع رجاءها، فالمراد من خبر سماع الله لخولة تطييب خاطرها(٤٣).

****

(٤٣) انظر: التفسير الموضوعي لسور القران ٣٥/٨.

المبحث الثاني: أساليب الدعوة في حديث المجادِلَة

أساليب الدعوة فهي: "القوالب والأشكال والكيفيّات التي تُعرض فيها الدعوة"(٤٤). وأهم أساليب الدعوة المستنبطة في قصة المجادِلة هي الحكمة والجدال بالتي هي أحسن.

المطلب الأول: الحكمة(٤٥):

الحكمة لغة: أحكمتُ الشيءَ إذا صار مُحْكَماً، والحكيم: المتقِن في الأمور. وحَكَم الرجلُ إذا بلغ النهاية في معناه. واستحكم الرجل إذا تناهى عما يضره في دينه ودنياه(٤٦).

أما الحكمة اصطلاحاً فقد عَرَّفها ابن القيم رحمه الله فقال: "الحكمة فِعْلُ ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي"(٤٧). ووضّحها الشيخ ابن سعدي رحمه الله فقال: "هي معرفة أسرار الشرع وفوائده وحِكَمه، وحسن الدعوة والتعليم، ومراعاة ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي"(٤٨). وعَرَّفها الباحثون في الدعوة: "هي الإصابةُ في الأقوال والأفعال، ووَضْع الشيء في موضعه"(٤٩).

وأسلوب الحكمة من الأساليب الرئيسة في المجال الدعوي؛ فالعلاقة مطردة بين حكمة الداعية ونجاحه في الميدان الدعوي، فكلما كان الداعية أكثر حكمة في مواجهة ما يعترضه من مواقف، كان كلامه في المدعو أعمق وأنجع.

---

(٤٤) الدعوة، د. حمد العمار، ص١٤٩، كنوز أشبيليا، الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

(٤٥) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، ص ٢٧، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٣هـ.

(٤٦) انظر: مادة حكم، لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، ١٢ / ١٤٣، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤ هـ.

(٤٧) مدارج السالكين في منازل السائرين، ابن قيم الجوزية، ٢٩٤/٣، دار عطاءات العلم، الرياض، ط٢، ١٤٤١هـ/٢٠١٩م.

(٤٨) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، ص٢٤٨، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

(٤٩) الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، ص ٢٧.

ومن علوّ شأن الحكمة أن جعلها القرآن الكريم من الخير الكثير الذي يصيب مَن مُنِحَها: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(٥٠). ورسول الله ﷺ خير قدوة للداعية الحكيم الذي لم يألُ جهداً في وضع الأمور في نصابها زماناً ومكاناً مع مراعاة نوع الشخص وفِكْره وفهمه. ولأهميتها دعا رسول الله ﷺ لابن عباس بأن يرزقه الله حكمة تنير دروب مسيرته العلمية والعملية، وهو مما يؤكّد حاجة العلماء والدعاة إلى العناية بهذا الأسلوب، فعن عبد الله بن عباس قال: ضمّني النبي ﷺ إلى صدره، وقال: "اللهم عَلّمْه الحكمة"(٥١).

والداعية إن لم يُوْلِ أسلوب الحكمة عنايته البالغة فسوف يَلْحظ على امتداد مسيرته الدعوية بأنه لم يصل إلى ما خطط له من نتائج؛ إذ إن التعامل مع المدعوين يلزمه في المقام الأول حسنُ رأيٍ، وصواب تدبير، وهذا لا يتأتّى إلا بمحاولة التمرّس على السير وفق أسلوب الحكمة.

وتبرز بجلاء حكمة رسول الله ﷺ في تفاصيل قصة المجادِلة، إذ كان عليه الصلاة والسلام حكيماً عند مراعاته لمشاعر المرأة، فلم يستخفّ بها أو يستحقرها، كما لم يؤنّبها على الخلاف الذي وقع بينها وبين زوجها، فحال خولة وزوجها كحال أي إنسان يصدر منه خطأ أو قصور، وهو بحاجة إلى تصحيح وبيان ومساندة ودعم، وقد تفرّغ عليه الصلاة والسلام للقائها، وأنصت لها، وبيّن لها الحكم الذي كان متعارفاً عليه حينها، وهو أن الظّهار يوجب الفرقة المؤبّدة، كما كان متعارَفاً عليه حينها، حتى نزل حكم الله الذي جَبَر كسرها، وأرضى قلبها.

والخلاف بين كل زوجين أمرٌ مألوف متعارفٌ عليه وغير مستنكَر، ولم يخلُ منه أيُّ بيت، بَلْهَ البيت النبوي، والشواهد على ذلك عدة، ومنها ما ذُكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث طويل جاء فيه: " وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، فصحت على امرأتي فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ولم تنكر أن أراجعك، فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجِعْنَه، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل...."(٥٢). ويُعلّق الإمام ابن الحجر على هذا الحديث تعليقاً

(٥٠) سورة البقرة، الآية ٢٦٩.
(٥١) رواه البخاري، كتاب: فضائل الصحابة، باب: ذِكر ابن عباس رضي الله عنهما، برقم ٣٧٥٦، (٥/٢٧).
(٥٢) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة في السطوح وغيرها، برقم ٢٤٦٨، (٣/ ١٣٣).

فيه توجيهات سديدة للزوجين تساعد علو دوام المودة والمحبة بينهما حتى في حال وقوع خلاف بينهما: " وفيه أن شدة الوطأة على النساء مذموم؛ لأن النبي ﷺ أخذ بسيرة الأنصار في نسائهم وترك سيرة قومه، وفيه الصبر على الزوجات والإغضاء عن خطابهن، والصفح عما يقع منهن من زلل في حق المرء، دون ما يكون من حق الله تعالى"(٥٣).

كما تجلّت حكمته عليه الصلاة والسلام في تيسير أداء الكفّارة؛ مراعاةً لأحوال أسرة خولة المادية، ورفعاً للحرج عنهم، فلم يحمّلهم ما لا طاقة لهم في أداء الكفارة، بل زاد على ذلك أن أعانهم في دفع ما نقص عليهم منها، فالإسلام قائم على خصيصة اليسر ورفع الحرج عن أتباعه. فالكفارة تسقط على غير المستطيع بدليل الكتاب والسنّة، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾(٥٤)، وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾(٥٥). ومن السنة قول النبي ﷺ: "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم"(٥٦)، وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: هلكت، فقال: وما ذاك؟، قال: وقعت بأهلي في رمضان، قال: تجد رقبة؟، قال: لا، قال: هل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا، قال: فتستطيع أن تطعم ستين مسكينا؟، قال: لا، قال: فجاء رجل من الأنصار بعرق، والعرق: المكتل فيه تمر، فقال: اذهب بهذا فتصدق به قال: على أحوج منا يا رسول الله؟ والذي بعثك بالحق، ما بين لابتيها أهل بيت أحوج منا، فقال: اذهب فأطعمه أهلك"(٥٧). ولعموم القاعدة الشرعيّة الكلية، وهي أنّه لا واجب مع عجزٍ، فالواجبات تسقط بالعجز عنها(٥٨).

(٥٣) فتح الباري لابن حجر ٩/ ٢٩١
(٥٤) سورة الطلاق: الآية ٧
(٥٥) سورة التغابن: الآية ١٦
(٥٦) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، برقم ٧٢٨٨، (٩/٩٤).
(٥٧) رواه البخاري، كتاب كفارات الأيمان، باب من أعان المعسر في الكفارة، برقم ٦٧١٠، (٨/ ١٤٤).
(٥٨) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين ط العلمية. محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ٢/ ١٧، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، الشرح الممتع على زاد المستقنع، محمد بن صالح العثيمين، ٦/ ٤١٧، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٢/ ١٤٢٨هـ.

ومن حكمة رسول الله ﷺ في هذه القصة استخدامه الأسلوب المناسب في المقام المناسب، ومن ذلك استخدامه لأسلوب قضاء الحوائج مع تلك الأسرة، في وقتٍ هم في أمسّ الحاجة إليه لعونهم في كشف ضرّهم، فتفرّغ بدايةً تفرّغاً تاماً للاستماع للمشكلة، ومن ثَمَّ بيَّن الحكم الشرعي المتاح لديه، ثم إنه لمّا نزل الوحي بآيات سورة المجادلة، ساهم عليه الصلاة والسلام بجمع ما يمكن تقديمه للزوج لدفع الكفارة التي لم يقدر عليها، كما ساهم في قضاء حاجتهم عن طريق الدعم المعنوي بالثناء على المرأة لمساهمتها في مدّ يد العون للزوج، ووصيته لها بحسن التبعل له، فكانت له اليد الطولى عليه الصلاة والسلام بدعم تماسك الأسرة، وصونها من التمزق.

قال ابن القيم رحمه الله في أهمية اختيار الأسلوب المناسب في الوقت المناسب: "الحكمة مراعاة جهات ثلاث: بأن يُعطي المرتبةَ حقَّها الذي أحقَّه الله لها بشرعه وقدره، ولا يتعدّى بها حدّها فيكون متعدِّيًا مخالفًا للحكمة، ولا يطلب تعجيلها عن وقتها فيخالف الحكمة، ولا تأخيرها عنه فيفوتها"(٥٩)، وعين الحكمة هو اختيار الكلام المناسب في الموضع المناسب(٦٠).

وبالمقابل نلحظ عميق حكمة خولة في تحلّيها بآداب الاختلاف، وحسن إدارتها للأزمة التي أصابت أسرتها، فلم تَهِنْ أو تجزع أو تستسلم، كما لا تصب بإحباط أو ذهول لخلافها مع زوجها؛ لإدراكها بأن المشكلات الزوجية هي أمر طبيعي بين أي زوجين؛ وذلك لاختلاف المنشأ والطباع والعادات والأعراف، وحَرَصت على مصلحة أبنائها، وفضّلت أن تصبر على زوجها وترعاه، إذ إن الموازنة بين المصالح والمفاسد من أبرز أسس الحكمة وقواعد العقل، فالشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلا فمَنْ لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية فقد يدع واجبات ويفعل محرمات(٦١)، "وليس العاقل الذي يعلم الخير

(٥٩) مدارج السالكين ٣/ ٢٩٤.
(٦٠) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى ١/ ١٤٧.
(٦١) انظر: مجموع الفتاوى ١٠/ ٥١٢.

من الشر، وإنما العاقل الذي يعلم خير الخَيرين وشرَّ الشَّرَّين"(٦٢).ولا حكيم كاملاً إلا مَنْ جرب الأمور وعلم المصالح والمفاسد فإنه لا يفعل فعلاً إلا عن حكمة"(٦٣).

المطلب الثاني: الجدال بالتي هي أحسن

المجادلة لغةً: من الجَدْل وهو شِدَّة الفَتْل. وجَدَلْتُ الحَبْلَ أَجْدِلُه جَدْلًا إذا شَدَدْتَ فَتْله وفَتَلْتَه فَتْلًا مُحْكَماً(٦٤). وهُوَ مِنْ بَابِ اسْتِحْكَامِ الشَّيْءِ فِي اسْتِرْسَالٍ يَكُونُ فِيهِ، وَامْتِدَادِ الْخُصُومَةِ وَمُرَاجَعَةِ الْكَلَامِ(٦٥). والجَدَل: مُقَابَلَةُ الْحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ؛ وَالْمُجَادَلَةُ: الْمُنَاظَرَةُ وَالْمُخَاصَمَةُ. وَيُقَالُ: إنه لَجَدِل إذا كَانَ شَدِيدَ الخِصام(٦٦).

واصطلاحاً: "الجدال عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها"(٦٧). وهو "المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم"(٦٨).

والجدل ينقسم إلى قسمين:

(٦٢) مجموع الفتاوى ٢٠/ ٥٤.

(٦٣) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن المباركفوري، ٦/ ١٥٤، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٦٤) لسان العرب ١١/ ١٠٣، مادة جدل.

(٦٥) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس الرازي، ١/ ٤٣٣، مادة جدل، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(٦٦) لسان العرب ١١/ ١٠٥، مادة جدل.

(٦٧) التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، ص٧٥، باب الجيم، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م.

(٦٨) مناهج الجدل في القرآن الكريم، د. زاهر عواض الألمعي، ص٢٠، ط٢، ١٤٠٠هـ.

١-جدال ممدوح: وهو كل جدال أيّد الحق، أو أوصل إليه بنية صالحة خالصة وطريق صحيح، وهو طَلَبُ الحقّ ونصره، وإظهار الباطل، وبيان فساده(٦٩).

٢-جدال مذموم: وهو كل جدال أيّد الباطل أو أوصل إليه، أو كان بغير علم وبصيرة(٧٠).

وقد تمسّك القائلون بذم الجدل بقوله تعالى في محكم آياته: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾(٧١)، أي لأجل الجدل والمِرَاء، لا لإظهار الحق. وبيان ذلك أن الآيات الدالة على مدح الجدل كثيرة، فتُصْرَف إلى الجدل الذي يفيد تقرير الحق، أما هذه الآية وما في معناها تُصرف إلى الجدل الذي يوجب تقرير الباطل(٧٢).

"والجدل القرآني على ثلاثة أنواع:

أ-ما ردّ الله به على الخصوم من الحجج والبراهين وما ساقه من الأدلة؛ لتثبيت العقائد وتقرير قواعد الملة، مما جاء على ألسنة رسله وأنبيائه وما ألهم الله به عباده الصالحين.

ب-ما ورد في القرآن بطريق الحوار، والقصد منه العِظَةُ والعبرة، أو الترجّي والدعاء.

ج-ما يأتي على ألسنة الكفار من الاعتراضات والشبهات والدعاوى الباطلة، وقد حكاها القرآن الكريم لبيان بطلانها"(٧٣).

وجدال خولة بنت ثعلبة في سورة المجادلة يرجع إلى النوع الثاني، وهو الجدال بمعنى المراجعة والمحاورة، فهي لم تجادل رسول الله ﷺ على سبيل المنازعة والمخاصمة، وإنما من باب الترجّي لإيجاد حل لمشكلتها، وبذل الدعاء

(٦٩) انظر: مشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه، محمد بن علي بن موسى، ١١٤/٢، دار المغني، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص٤٥.

(٧٠) انظر: مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص٢١-٢٢، آفات اللسان في ضوء الكتاب والسنة، د. سعيد بن علي القحطاني، ص٦٦، مطبعة سفير، الرياض، ط٩، ١٤٣١هـ.

(٧١) سورة الزخرف، آية ٥٨.

(٧٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب ١٧/ ٢٨٤.

(٧٣) مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص٢١-٢٢.

لله لتفريج كربها، بحكمٍ لا يُلحق ضرراً بعلاقتها بزوجها أو بأسرتها. فالحوار هو من أنجع الطرق للوصول إلى حلّ للمشكلات والخصومات، وخير دليل على ذلك النتيجة التي وصلت إليها خولة بحوارها مع رسول الله ﷺ، إذ تمّ بذا حل مشكلتها وإنهاء ما كان بينها وبين زوجها من خصام. وكان جدالها رضي الله عنها لرسول الله ﷺ محمودا؛ إذ ليس فيه لدد ولا خصومة(٧٤). قال تعالى في شأن خولة: ﴿تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ "أي: تجادلك في قول زوجها وكلامه، وهي أن النبي ﷺ كلما قال لها: "حرمتِ عليه"؛ قالت: واللهِ ما ذكر طلاقاً، فكان هذا مجادلتها ومحاورتها النبي ﷺ في زوجها"(٧٥).ويؤكّد ذلك وَصْفُ الله تعالى لهذا الجدال بأنه من باب الحوار، فقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ أي: "تخاطبكما، ومراجعتكما الكلام"(٧٦).

ورسول الله ﷺ ما كان له أن يقضي بأمره أو ينطق عن الهوى، فهو رسول الله مرجعه الوحي الحامل لخبر السماء، وهو لم يتلقّ وحياً يجيب عن هذا السؤال سوى استصحاب الأصل الذي كان متعارفاً عليه في المجتمع من أن الظهار يُوجِب الفرقة المؤبَّدة، فازدادت حيرة خولة، واشتدّ حزنها، واستمرت في مجادلة رسول الله ﷺ ومحاورته، فلما يئست منه رفعت كفَّيها إلى السماء، وتضرعت إلى الله بكشف كربها حتى استجاب الله لشكواها، وأنزل آيات حكم الظهار وكفارته(٧٧).

لقد منح عليه الصلاة والسلام خولة مطلق الحرية في عرض ما تريد عليه، وبث شكواها له، كما أفسح لها المجال في محاورته ومناقشته، ولم يتبرّم بجدالها عندما أجابها بما لديه من حكم مبنيّ على المعروف في المجتمع في ذاك الزمن، ولم يُنزل الله ما ينسخه، كما لم يضق ذرعاً من إصرارها على الاعتراض على الحكم؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يمانع من الحوار والجدل إذا كان المقصد منهما حسناً، كطلب الحق والاسترشاد(٧٨). وهذا ما ينبغي أن يلتزم

(٧٤) انظر: أدب الحوار في الإسلام، غسان عبد العزيز القين، ص٣٣، ٣٤، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.
(٧٥) تأويلات أهل السنة ٥٤٨/٩، التفسير البسيط، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، عمادة البحث العلمي، ٣٢٦/٢١، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٣٠هـ، اللباب في علوم الكتاب ١٨/ ٥١٦.
(٧٦) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، ٤/ ٢٥٩.
(٧٧) انظر: مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص٤٠٥-٤٠٦.
(٧٨) انظر: مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص٥٠.

به الداعية الحصيف في أثناء أدائه لمهمته الربانية، وذلك بأن يُتيح الفرصة للمدعو بأن يحاور ويناقش ويجادل باعتدال، ثم يمنحه ما يُثلج صدره، ويَشْفي غليله من معلومات وحجج وبراهين تُسهم في بناء ما يلزمه من علم وبصيرة، مع ضرورة الالتزام بآداب الحوار والجدال التي وضّحها العلماء(٧٩).

وهذه القصة أظهرُ مثال لتكريم الإسلام للمرأة، وإعلاء شأنها، فقد أعطاها الشرع مطلق الحق في التعبير عن رأيها، ومَنَحها كامل الحرية في الدفاع عن حقوقها، فنلحظ مسارعة خولة إلى رسول الله ﷺ وطرح شكواها أمامه، والمنافحة عن كرامتها، والجدال فيما يهدد استقرار أسرتها، ويؤدي إلى ضياع أبنائها؛ لأنها كانت مقتنعةً كل الاقتناع بقضيتها، ومؤمنة بمنهج الإسلام في التيسير ورفع الحرج عن أتباعه، ولم يعتب عليها الله سبحانه وتعالى شيئاً من ذلك، بل أكّد جل وعز حقها فيما أقدمتْ عليه، بأن أنزل قصّتها آياتٍ تُتلى في كتابه العزيز. كما أن في القصة فوائد عميقة في كون الحوار أسلوباً فعّالاً في التواصل بين أيّ شخصين، كالزوجين أو غيرهما، وكلما كان الحوار بين المتحاورَين صحياً مطبّقاً لآداب الحوار، كان أنجع وأنجح، وتُوُصّل به إلى الغاية المرجوة منه.

****

(٧٩) انظر: مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص٤٣١-٤٣٨، الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية، د. عبد الرحيم المغذوي، ص٧٣٠-٧٣١، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

المبحث الثالث: وسائل الدعوة في حديث المجادِلَة

وسائل الدعوة هي: "الأوعية التي تُحمَل فيها الدعوة لجذب الآخرين إلى طريق الخير"(٨٠). وأهم وسائل الدعوة المستنبطة في قصة المجادِلة هي الفتوى والتعليم.

المطلب الأول: الفتوى

الفتوى لغةً: أَفْتَاه فِي الأَمر: أَبانَه لَهُ. وأَفْتَى الرجلُ فِي المسأَلة، واسْتَفْتَيْته فِيهَا فأَفْتَانِي إِفْتَاء، وأَفْتَيْتُه فِي مسأَلته إِذا أَجَبْتُه عَنْهَا(٨١).

الفتوى اصطلاحاً: "هي الإخبار بالحكم الشرعي"(٨٢). والمُفْتي هو "المخبر بِحكم الله تَعَالَى لمعرفته بدليله"(٨٣). "ومما يؤكّد علوّ شأنها أنها منْصِبِ التَّوْقِيعِ عن رَبِّ الأَرْضِ والسَّمَوَاتِ"(٨٤).

والفتوى تعد وسيلة من وسائل الدعوة، فهي وعاء تُحمل فيه الدعوة، ويستخدم فيه الأساليب التي تجذب المدعو من حكمة وموعظة وجدال بالتي هي أحسن، فتكون الفتوى بذلك وسيلة داعمة من وسائل الدعوة في شرح الصدور وتقريب القلوب إلى الرسالة(٨٥).

وعلى المفتي أن يتحلى بعدد من الآداب، منها:

-أن يتصف بالعلم والحلم والوقار والسكينة.

---

(٨٠) الدعوة، د. حمد العمار، ص١٥٠.

(٨١) لسان العرب ١٥/ ١٤٧.

(٨٢) الإتقان والإحكام في شرح تحفة الحكام، محمد بن أحمد الفاسي، ميارة، ١/ ٧، دار المعرفة.

(٨٣) صفة الفتوى، أحمد بن حمدان الحنبلي، ص٤، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٣٩٧هـ.

(٨٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٩.

(٨٥) انظر: أثر الفتوى الشرعية في نشر الدعوة الإسلامية المعاصرة، بسيوني نحيلة، مؤتمر الفتوى واستشراف المستقبل، جامعة القصيم، ٢٠١٣م.

-أن يتواضع مع الرفق واللين.

-أن يتفهّم سؤال المستفتي، وأن يكون واسع الصدر معه، ويصبر عليه، فلا يضيق ذرعًا بجهل السائل، ولا بإلحاحه، أو تطويل السؤال وتكراره، مع حُسن التأنّي في التفهم منه، والتفهيم له، والإقبال عليه، ولا سيما إذا كان ضعيف الحال، محتسباً أجر ذلك فإنه جزيل (٨٦).

ورسول الله ﷺ قدوة الدعاة في بيان ما ينبغي أن يتمثّله المفتي من آداب سامية وقيم عالية، توضّح لنا جوهر الدين الإسلامي ومُثُله العليا في التعامل مع السائل المستفتي. فكم كان عليه الصلاة والسلام متواضعاً مع خولة، حليماً رفيقاً ليّناً مقبلاً عليها مع جدالها وإصرارها على موقفها، وكم كان متفهّماً لمشاعرها واسع الصدر طويل البال معها، مع إطالتها وإلحاحها في مسألتها.

والرواية التالية التي ذكرتها كتب التفاسير تعطي صورة عن مدى إصرار خولة على مجادلة رسول ﷺ، ومدى تحلّيه عليه الصلاة والسلام بأدب الفتوى، مع قوة نبرة خولةَ، وشدة أسلوبها. روى الحسن رحمه الله أن خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها قالت: يا رسولَ الله قد نسخ الله سُنَنَ الجاهلية، وإن زوجي ظاهر مني، فقال رسول الله ﷺ: (ما أوحي إليّ في هذا شيء) فقالت: يا رسولَ الله أوحي إليك في كل شيء وطوي عنك هذا؟ فقال: (هو ما قلتُ لك) فقالت: إلى الله أشكو لا إلى رسوله، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ (٨٧)الآية(٨٨).

ومن أدب المفتي الذي أرشدنا إليه عليه الصلاة والسلام في هذه القصة، أنه لم يستعجل بالفتوى حتى نزل الوحي، فقد أفتى خولة بالفتوى التي كان متعارفاً عليها في المجتمع من أن الظهار يوجب الفِرْقَةَ المؤبدة، ولم يغيّر رأيه وفتواه أمام إصرارها وجدالها، حتى أنزل الله تعالى وحيه بالحكم الشرعي للظهار. والداعية يمتثل الأمر التشريعي إن عُرِضَ عليه مثلُ حال خولةَ، فلا يستعجل في الإفتاء حتى يراجع المسألة ويتأكد لديه حُكْمُ الشارع فيها. عن ابن

(٨٦) انظر: أدب المفتي والمستفتي ص١٣٥، جامع المسائل والقواعد في علم الأصول والمقاصد، عبد الفتاح بن محمد مصيلحي، ٤/ ٨٥، دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، ط١، ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م.

(٨٧) سورة المجادلة: الآية ١

(٨٨) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، ١٧/ ٢٧٠، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

وهب قال: سمعت مالكاً يقول: العجلة في الفتوى نوع من الجهل والخُرْق، وكان يقال: التأنّي من الله، والعجلة من الشيطان، وما عَجِل امرؤ فأصاب، واتّأد آخر فأصاب، إلا كان الذي اتّأد أصوب رأياً، ولا عَجِل امرؤ فأخطأ، واتأد آخر فأخطأ إلا كان الذي اتأد أيسرَ خطأ(٨٩). وقال ابن القيم: "كان يُقال: التأني من الله والعجلة من الشيطان"(٩٠).

ومما ينبغي للمفتي أن يسير مع المستفتي على مبدأ الرفق والتيسير والسماحة، فيقدّم له الحكم الشرعي الأرفق والأيسر له، مع مراعاة مصالحه وأحواله، ويبتعد عن التعسير والتشديد في المسائل، فأحكام الإسلام تتّسم بالمرونة والرحابة والسعة، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(٩١). وقال سبحانه: ﴿ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾(٩٢). وفي الحديث: "إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين"(٩٣). وقال ﷺ: "يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا"(٩٤). والمفتي مع استصحابه للتيسير والرفق لا يبالغ في ذلك، فهو لا يتساهل في أمر بواجب أو تحليل حرام أو التحايل عليه بدعوى التيسير، بل يضع في حسبانه أن يكون منضبطاً متوازناً في فتواه، فالمراد تحصيل المقاصد الشرعية بأقل جهد وأيسر سبيل؛ فالاستطراد في باب الرفق تيسير في الفتوى دون ضوابط قد يوقع المفتي في مجاراة أهواء الناس، ورغباتهم.

قال الشاطبي رحمه الله: "المفتي هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور؛ فلا يذهب بهم مذهب الشدة، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال. والدليل على صحة هذا أنه الصراط المستقيم الذي جاءت به

(٨٩) المدخل إلى علم السنن، أحمد بن الحسين البيهقي، اعتنى به وخرَّجَ نقُولَه: محمد عوامة، ٢/ ٨٦٥، دار اليسر للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط١، ١٤٣٧ هـ / ٢٠١٧ م.

(٩٠) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ١٢٨.

(٩١) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٩٢) اسورة المائدة: الآية ٦.

(٩٣) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، برقم٢٢٠، (١/ ٥٤).

(٩٤) رواه البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، برقم ٦٩، (١/٢٥).

الشريعة؛ فمقصد الشارع من المكلّف الحمل على التوسّط من غير إفراط ولا تفريط، فإذا خرج عن ذلك في المستفتين خرج عن قصد الشارع، ولذلك كان ما خرج عن المذهب الوسط مذموما عند العلماء الراسخين"(٩٥).

وفي قصة المجادِلة أومأ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾(٩٦) إلى أن مراد الله من هذا الحكم التوسعة على الناس، فعلمنا أن مقصد الشريعة الإسلامية أن تدور أحكام الظهار على محور التخفيف والتوسعة، فعلى هذا الأساس يجب أن يجري الفقهاء فيما يفتون(٩٧).

ومن أدب الفتوى مراعاة المفتي لخصوصية المستفتي وأسراره، فقد احترم رسول الله ﷺ خولة، فأفسح لها المجال للحديث، وتفرّغ لها، وأقبل عليها، منصتاً لسؤالها، سامعاً لشكواها، واحترمت عائشة رضي الله عنها خصوصية الفتوى، فلزمت جانباً من جوانب البيت، ولم تقترب منهما لسماع محاورتهما؛ تفهماً منها لرغبة خولة في سِرّيّة الأمر، فهي كانت تُسِرّ له، ولم ترفع صوتها(٩٨). عن عائشة رضي الله عنها قالت: "الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة إلى النبي ﷺ، وأنا في ناحية البيت، تشكو زوجها، وما أسمع ما تقول، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾(٩٩)(١٠٠).

وإن استشارة خولة لرسول الله ﷺ، واهتمامها بمشكلتها، وعدم التصرف على هواها، يعطينا إشارة إلى ضرورة المبادرة إلى حل أي مشكلة عارضة، ولا سيما الفقهية منها، وذلك بالرجوع إلى المرجعية المعتمدة، واستشارة أهل الحل والربط في ذلك، وفي زمن خولة كان أعلى مصدر تشريع يُستفتى ويُستشار هو رسول الله ﷺ قائد الأمة في ذلك الوقت، وله الحق في إصلاح أي خلاف وبيان كل خطأ يُرجع فيه إليه. وإن من طبيعة الإنسان الوقوع في

(٩٥) الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، ٥/ ٢٧٦، تحقيق: مشهور آل سلمان، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
(٩٦) سورة المجادلة: الآية ٢.
(٩٧) انظر: التحرير والتنوير ٢٨/ ١٤.
(٩٨) انظر: مشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه ٤/ ٨٥.
(٩٩) سورة المجادلة: الآية ١
(١٠٠) سنن ابن ماجه، برقم ١٨٨، (١/ ١٣٠)، قال المحقق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

الخطأ، كما أن من المعتاد وقوع مشاكل زوجية بين أي زوجين، فلا بد للناس من مرجعية تبيّن لهم أخطاءهم، وتصحح لهم مسارهم عند وقوعهم في أي خلاف، أو صدور أي خطأ منهم.

المطلب الثاني: التعليم

يعدّ التعليم الشرعي من أشرف المهام وأسمى الوظائف، التي اعتنى بها الشارع، وأمر بالإعداد لها، وجعلها في مقدمة الوسائل التي يحرص الداعية على صقلها وبذل الجهد في استخدامها مع الجمهور الدعوي، فبها يتعرف المسلم على تفاصيل الأحكام الشرعية، وفَهْمِ دقائقها، وطريقة تطبيقها في واقع الحياة. ورسول الله ﷺ هو المعلم الأول، فبه وَصَلَنا خبر السماء المتضمّن لتعاليم الشريعة، وبه تعلّمنا أسرار تلك التعاليم، وفَهِمْنا حَكَمها وأحكامها. وتعليم رسول الله ﷺ لنا هو من النِعم التي امتنّ الله سبحانه وتعالى علينا بها، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[١٠١].

وبسبر الأحاديث الشريفة وأحداث السيرة النبوية نطلع على مواقف تعليمية كثيرة يُعلم فيها رسول الله ﷺ أصحابه أحكام الشارع كحديث المسيء في صلاته[١٠٢]، وحديث المتكلم في صلاته[١٠٣]، وتعليمه الصحابة أركان الصلاة[١٠٤]، ومناسك الحج[١٠٥]، وغيرها من الأحاديث التي كانت بياناً تعليمياً وافياً شافياً لتعاليم الشرع، كلٌّ في بابه، للصحابة ومَنْ خَلَفَهم من أتباع الأمة الإسلامية.

---

(١٠١) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

(١٠٢) رواه البخاري في كتاب الاستئذان، باب من رد فقال عليك السلام، برقم ٦٢٥١، (٥٦/٨).

(١٠٣) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، برقم ٥٣٧، (٣٨١/١).

(١٠٤) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، برقم ٦٠٠٨، (٩/٨).

(١٠٥) رواه مسلم في كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا. وبيان قوله صلى الله تعالى عليه وسلم "لتأخذوا مناسككم"، برقم ١٢٩٧، (٩٤٣/٢).

ومن المواقف التوجيهية التعليمية التي استفاد منها مجموع الأمة، التوجيهات التي وجّه بها رسول الله ﷺ خولة في قصة المجادِلة، فقد وجّهها بأن تتغاضى عن هذه المشكلة العائلية وتتغافل عنها؛ لكون زوجها شيخاً كبيراً، فالتغافل عن بعض الهنّات والزلات ولا سيما مع الزوج والأبناء والأقرباء من كريم الأخلاق وحُسن الخصال، فعلاقات الرحم ووشائج القربى لا تستقيم ولا تتوثق إلا بالتغافل، فمن شدد نفَّر، ومن تغاضى تآلف، والشرف في التغافل، وسيد قومه المتغابي[١٠٦]. قال تعالى عن نبينا محمد ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ﴾[١٠٧]. وقال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾[١٠٨]. قال سفيان الثوري: "ما زال التغافل من فعل الكبراء"[١٠٩]. وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: "العافية عشرة أجزاء كلها في التغافل"[١١٠].

ثم وجّه رسول الله ﷺ خولة بالرجوع إلى منزلها والعناية بزوجها، وحسن تبعّله ومراعاته، وبعد نزول آيات الظهار بيّن عليه الصلاة والسلام لخولة الكفارة، وأرشدها إلى تفاصيلها، وما ينبغي أن تقوم به تجاه زوجها وأسرتها.

فعن خُوَيلةَ بنت مالك بن ثعلبة قالت: ظاهر مني زوجي أوسُ بن الصامت، فجئت رسول الله ﷺ أشكو إليه، ورسول الله ﷺ يجادلني فيه، ويقول: "اتقي الله؛ فإنه ابنُ عَمِّكِ". فما بَرِحْتُ حتى نزل القرآن: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[١١١] إلى الفَرْض، فقال: "يعتق رقبة". قالت: لا يجد! قال: "يصوم شهرين متتابعين". قالت: يا رسول الله! إنه شيخ كبير، ما به من صيام! قال: "فليطعم ستين مسكيناً". قالت: ما عنده من شيء

(١٠٦) انظر: المسلم وحقوق الآخرين، أبو فيصل البدراني، ص٤١.
(١٠٧) سورة التحريم: الآية ٣.
(١٠٨) سورة يوسف: الآية ٧٧.
(١٠٩) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، ٢٠/ ١٨٧، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
(١١٠) شعب الإيمان، أبو بكر البيهقي، ٦/ ٣٣٠، تحقيق: محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
(١١١) سورة المجادلة: الآية ١

يتصدق به! قالت: فأُتِيَ ساعَتَئِذٍ بِعَرَقٍ من تمر، قلت: يا رسول الله! وأنا أُعِينُهُ بِعَرَقٍ آخر. قال: "قد أحسنتِ، اذهبي فأطعمي بها عنه ستين مسكيناً، وارجعي إلى ابن عمك"(١١٢).

واقتفى الصحابة نهج رسول الله ﷺ في العناية بالتعليم وإرشاد الناس وتوجيههم إلى دروب الخير، فكان أبو هريرة رضي الله عنه يخرج يوم الجمعة فيقبض على رمانتي المنبر قائماً ويقول: حدثنا أبو القاسم رسول الله الصادق المصدوق ﷺ، فلا يزال يحدّث حتى إذا سمع فتح باب المقصورة لخروج الإمام للصلاة جلس"(١١٣).

"وقد استأذن تميمُ الداري عمرَ بن الخطاب في القصص سنين، ويأبى عليه، فلما أكثر عليه قال: ما تقول؟ قال: أقرأ عليهم القرآن، وآمرهم بالخير، وأنهاهم عن الشر. قال عمر: ذاك الربح. ثم قال: عِظْ قبل أن أخرج للجمعة. فكان يفعل ذلك، فلما كان عثمان استزاده، فزاده يوما آخر"(١١٤).

وقد أكّد صاحب "الإحياء" أهمية وسيلة التعليم فبيّن أن على المعلم ألَّا يدع من نصح المتعلم شيئاً، وأن تتوافر عنده الشفقة على المتعلمين، وأن يجريهم مجرى بنيه، بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة، وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا، ولذلك صار حق المعلم عظيم فهو من أسباب نجاة المتعلم في الحياة الباقية(١١٥).

ومن حِكَم رسول الله ﷺ التعليمية المستقاة من هذه القصة شُكْرُه خولةَ بعدما عرضت مساعدتها لزوجها في أداء الكفارة، وثناؤه على حرصها على مدّ يد العون لزوجها غير القادر على دفع الكفارة "قد أصبتِ وأحسنتِ"، وتشجيعه لها على تلك اللفتة الكريمة منها.

---

(١١٢) سنن أبي داود برقم ٢٢١٤، ٣/ ٥٣٧، كتاب الطلاق، باب في الظهار وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم ١٩١٨، ٦/ ٤١٦.

(١١٣) المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، مع تضمينات الذهبي في التلخيص والميزان والعراقي في أماليه والمناوي في فيض القدير وغيرهم، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، برقم ٦١٧٣، (٣/ ٥٨٥)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وفي التعليق من تلخيص الذهبي: صحيح.

(١١٤) سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، ٤/٧٧، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

(١١٥) انظر: إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد الغزالي، ١/ ٥٦، دار المعرفة، بيروت.

وكان هذا دَيْدَن رسول الله ﷺ، فقد كان دائم التشجيع لأصحابه، مُثْنياً على تميّزهم، مادحاً خلالهم وفضائلهم. ومن ذلك ثناء الرسول ﷺ على أبي عبيدة رضي الله عنه بقوله: "هذا أمين هذه الأمة"(١١٦)، وقوله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: "أرى عبد الله رجلاً صالحاً"(١١٧). وقد استحب أهل العلم الثناء على مَن فعل جميلاً، أو فعل فِعْلًا فوافق الصواب، وأن يقال له: أحسنتَ، أو: أصبتَ، أو: بارك الله فيك، ونحو ذلك(١١٨).

ومن الفوائد التعليمية في هذه القصة أهمية التعليم بالأسلوب اللطيف الهيّن الرفيق، فرسول الله ﷺ كان في تعليمه لخولة هيّناً ليّناً رفيقاً لطيفاً، فلم يعنّفها، ولم يكُفّ فظّاً معها، بل اكتفى بنصحها بالتغاضي عن هذه المشكلة العائلية؛ لكون زوجها شيخاً كبيراً. وعلاوة على ذلك هو ابن عمها. كما وجّهها أن تحسِن تَبَعُّلَه؛ وكل ذاك التعليم والتوجيه، مع الرفق واللين هو مساندةٌ منه عليه الصلاة والسلام لهذا البيت الذي كاد أن ينهار بسبب سوء إدارة زوج غضوب ضجِر. وإن العنف والزجر الغلظة في تعليم المدعو يُورث نفوره، كما بيّن الله ذلك في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(١١٩).

وكم كان للطف رسول ﷺ ورِفْقِه ولِينه من أثر عظيم في صحابته، وإعجابهم بشخصه عليه الصلاة والسلام وامتثالهم لأوامره، فعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ. إذ عطس رجل من القوم. فقلت: يرحمك الله! فرماني القوم بأبصارهم. فقلت: واثُكْل أُمَّياهْ! ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم. فلما رأيتهم يُصَمّتُونَني، لكني سكت. فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي! ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله! ما كهرني(١٢٠) ولا ضربني ولا شتمني. قال: "إن هذه الصلاة

(١١٦) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح، برقم ٢٤١٩، (٤/ ١٨٨١).
(١١٧) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن عمر، برقم ٢٤٧٨، (٤/ ١٩٢٧).
(١١٨) انظر: شرح سنن أبي داود، أحمد بن رسلان، ١٥/ ٦٤٧، تحقيق: عدد من الباحثين، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم، مصر، ط١، ١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م، عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٢/ ٣٤.
(١١٩) سورة آل عمران: آية ١٥٩.
(١٢٠) الكَهْر: الانْتِهار. وقد كَهَرَه يَكْهَرُه، إِذَا زَبَره واسْتَقْبله بوَجْهٍ عَبُوس، (النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين بن الأثير، ٤/ ٢١٢، تحقيق: طاهر الزاوي، محمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن"(١٢١). قال الإمام النووي رحمه الله: "فيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق الذي شهد الله تعالى له به ورفقه بالجاهل ورأفته بأمته وشفقته عليهم. وفيه التخلق بخلقه ﷺ في الرفق بالجاهل وحسن تعليمه، واللطف به، وتقريب الصواب إلى فهمه"(١٢٢).

****

(١٢١) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، برقم ٥٣٧، (٣٨١/١).

(١٢٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محيي الدين النووي، ٢٠/٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

الخاتمة:

الحمد لله الذي أتمّ عليّ النعمة بإتمام هذه الدراسة، التي تناولتُ فيها قصة المجادِلة، وما تحويه من قضايا دعوية، يحسُن بالداعية الإفادةُ منها، وتطبيقها في منهجه الدعوي في دربه النبوي المبارك.

وفي هذه الدراسة استنبطتُ أهم ما في قصة المجادلة من موضوعات دعوية في مجال كلٍّ من: العقيدة والشريعة والأخلاق، كما درست ما استُخدم فيها من أساليب دعوية كالحكمة والجدال بالتي هي أحسن، ووسائل دعوية كالفتوى والتعليم.

وقد أبرزتْ هذا البحث أهمية دراسة ما بين دفّتي الكتاب العزيز من آيات بيّنات، وما نطق به الصادق المصدوق من أحاديث شريفة، فهما نبعٌ ثريّ يتجدّد عطاؤه، وتتجلّى فرائده لكل متأمّل متدبّر عازمٍ على سبر أغوارهما، واستخراج كنوزهما في كل مجال علمي ومنه المجال الدعوي الذي هو محور دراسة هذا البحث.

النتائج:

١- غَناء آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة النبوية المطهرة بالفوائد الدعوية؛ فعلى الداعية أن يبذل وسعه في دراستهما، والإفادة من كنوزهما.

٢- سلّطتْ قصة المجادلة الضوء على موضوعات دعوية مهمة في باب العقيدة والشريعة والأخلاق، مما يدل على ثرائها الموضوعي.

٣- تنوّعت الأساليب الدعوية المستخدمة في هذه القصة بين حكمة ومجادلة بالتي هي أحسن؛ للوصول إلى الغرض الدعوي المنشود.

٤- عُنيت هذه القصة باستخدام وسيلتين دعويتين مناسبتين للمقام، وهما الفتوى والتعليم.

التوصيات:

١- أوصي الباحثين في الجانب الدعوي بمزيد من الدراسة الدعوية للآيات القرآنية والأحاديث الشريفة؛ بغرض الإفادة من أصول العلم الشرعي المستقى منهما.

٢- كما أقترح أن يُدرّب طلبة العلم الشرعي على استنباط الفوائد الدعوية من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة؛ تنميةً لمهاراتهم في الاستنباط والبحث العلمي، مع تشجيعهم على تطبيقها في واقع حياتهم العلمية والعملية.

٣- كما أُوصي أن يعتني الداعية بالتأصيل الشرعي لعلومه الدعوية، مع الأخذ بعين التقدير مواكبة أحداث عصره، والاطلاع على مستجدات زمانه.

****

قائمة المراجع:

١ -القرآن الكريم

٢ - أثر الفتوى الشرعية في نشر الدعوة الإسلامية المعاصرة، بسيوني نحيلة، مؤتمر الفتوى واستشراف المستقبل، جامعة القصيم، ٢٠١٣م.

٣ -إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.

٤ -أدب الحوار في الإسلام، غسان عبد العزيز القين، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

٥ -أدب المفتي والمستفتي، أبو عمرو عثمان المعروف بابن الصلاح، دراسة وتحقيق: د. موفق عبد الله عبد القادر، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٦ -إعلام الموقعين عن رب العالمين ط العلمية. محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٧ -آفات اللسان في ضوء الكتاب والسنة، د. سعيد بن علي القحطاني، مطبعة سفير، الرياض، ط٩، ١٤٣١هـ.

٨ -الإتقان والإحكام في شرح تحفة الحكام، محمد بن أحمد الفاسي، ميارة، دار المعرفة.

٩ -الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية، د. عبد الرحيم المغذوي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

١٠ -البحث العلمي، حقيقته ومصادره ومادته ومناهجه وكتابته وطباعته ومناقشته، عبد العزيز الربيعة، ط٢، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٨هـ.

١١ -التحبير لإيضاح معاني التيسير، محمد بن إسماعيل الصنعاني، تحقيق: وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه: محَمَّد صُبْحي، مكتبة الرُّشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م.

١٢ -التحرير والتنوير من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ هـ.

١٣ -التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م.

١٤ -التفسير البسيط، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٣٠هـ.

١٥ -التفسير الموضوعي لسور القران، إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن بإشراف د. مصطفى مسلم، جامعة الشارقة، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

١٦ -التفسير الوسيط، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، علي بن أحمد الواحدي، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٧ -الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

١٨ -الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٣هـ.

١٩ - الدعوة، د. حمد العمار، كنوز أشبيليا، الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٢٠ -الشرح الممتع على زاد المستقنع، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٢/ ١٤٢٨هـ.

٢١ -القاموس المحيط، مجد الدين الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٨، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م

٢٢ -اللباب في علوم الكتاب، عمر بن علي بن عادل، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨م.

٢٣ -المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

٢٤ -المدخل إلى علم السنن، أحمد بن الحسين البيهقي، اعتنى به وخرَّجَ نقُولَه: محمد عوامة، دار اليسر للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط١، ١٤٣٧ هـ / ٢٠١٧ م.

٢٥ -المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، مع تضمينات الذهبي في التلخيص والميزان والعراقي في أماليه والمناوي في فيض القدير وغيرهم، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

٢٦ -المسلم وحقوق الآخرين، أبو فيصل البدراني.

٢٧ -المغني، موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، تحقيق د. عبد اللَّه بن عبد المحسن التركي، د. عبد الفتاح محمد الحلو، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧م.

٢٨ -المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محيي الدين النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

٢٩ -الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧ م.

٣٠ -النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين ابن الأثير، تحقيق: طاهر الزاوي، محمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٣١ -تأويلات أهل السنة، محمد بن محمد الماتريدي، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

٣٢ -تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٣ -تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، تحقيق عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٣٤ -جامع المسائل والقواعد في علم الأصول والمقاصد، عبد الفتاح بن محمد مصيلحي، دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، ط١، ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م.

٣٥ –سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٣٦ –سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد بن ماجه، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، محمد كامل قره بللي، عبد اللّطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩ م.

٣٧ –سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩ م.

٣٨ –سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٣٩ –شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسُّنَّة، د. سعيد القحطاني، مطبعة سفير، الرياض.

٤٠ –شرح سنن أبي داود، أحمد بن رسلان، تحقيق: عدد من الباحثين، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم، مصر، ط١، ١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م.

٤١ –شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، عبد العزيز بن باز، دار الإمام البخاري للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م.

٤٢ –شعب الإيمان، أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٤٣ –صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق جماعة من العلماء، الطبعة السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، ١٣١١ هـ.

٤٤ –صحيح سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢ م.

٤٥ –صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.

٤٦ –صفة الفتوى، أحمد بن حمدان الحنبلي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٣٩٧هـ.

٤٧ -طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، دار عطاءات العلم، الرياض، ط٤، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩ م.

٤٨ -عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه: شركة من العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، بيروت.

٤٩ -فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وتصحيح تجاربه: محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، مصر، ط١، ١٣٨٠/١٣٩٠ هـ.

٥٠ -لسان العرب، جمال الدين بن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤ هـ.

٥١ -مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، السعودية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٥٢ -مدارج السالكين في منازل السائرين، ابن قيم الجوزية، دار عطاءات العلم، الرياض، ط٢، ١٤٤١هـ/٢٠١٩م.

٥٣ -مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠١ م.

٥٤ -مشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه، محمد بن علي بن موسى، دار المغني، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م.

٥٥ -معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس الرازي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٥٦ -مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٥٧ -مناهج البحث العلمي، د. محمد سرحان المحمودي، دار الكتب، اليمن، صنعاء، ط٣، ١٤٤١هـ/٢٠١٩م.

٥٨ -مناهج الجدل في القرآن الكريم، د. زاهر عواض الألمعي، ط٢، ١٤٠٠هـ.

٥٩ -نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.